جمال المرأة

وأثره فى نفوس الملوك والعظماء

لعل أغرب مايشغل بال المفكرين فى كل عصر هو سر جمال المرأة وما أوتيت من سحر خلاب وابتسامة فاتنة تأسر بها القلوب ، ولقد امتلأ الشعر العربى كما امتلأ الشعر الغربى — قديما وحديثا — بالتغزل والنسيب بالمرأة والتمدح بحسنها ، أما موضوع اليوم فله ناحية أخرى غير تلك التى انتحاها هؤلاء وأولئك ! فهو بحث هادىء نريد أن نعلل به الأسباب التى تجعل هذه المرأة سيدة الجميلات فى عصرها ، فى حين أنك لو تأملت كل عضو من أعضائها — على حدة — لم تر له ميزة على سواه من أعضاء غيرها ، بل قد يحدث أحيانا أن يكون الأنف أكبر مما يجب والعين لم تكتمل شروط الجمال والفم أوسع أو أضيق مما يجب الى آخر تلك العيوب ، ولكن بمجموع الشكل جذاب جميل ، لو أن عضوا من أعضائه فقد ذلك الذى تحسبه فيه عيبا لأخل بجمال الشكل فى مجموعه وأضاع كثيرا من السحر والجاذبية ،

وهناك مواطن أخرى غير جمال الشكل

ألا ترى الى صورة كليوباترة ، أنعم النظر فيها جيدا ، أتحسب أن جمالها — فى الصورة — قد وصل الى نصف ما يصفونها به من جمال . وتعال معى فانظر الى صور الأوانس والغادات اللائى أحرزن ويحرزن قصب السبق فى مباريات الجمال، أتراهن خليقات بما أحرزنه من التفوق العظيم على آلاف الجميلات ؟

لا شك أنك متفق معى على أن الصورة لا ترينا من كل أولئك الا شكلا — كل مايوصف به أنه جميل ، لا أكثر ولا أقل — ولكن أشد الناس مغالاة — لا يستطيع — إن لم يكن مقلداً أو متنكبا عن الجادة — أن يخلعن صفة الزعامة ؟

ومتى تقرر هذا فى الاذهان فكيف يمكن أن نعلل هذا الاختلاف؟ أتهم الناس فى أذواقهم ونرميهم الغباء والتحيز ؟ ربما استطعنا أن نفعل ذلك، ولكننا لا نسلم بذلك من التحيز والمجازفة أيضا، ثم إن هذا لا يحل لنا المشكلة !

أما كاتب هذه السطور فيرى للمسألة حلا آخر ، تثبته المشاهدة ويؤيده الواقع الراهن ، ذلك أن الصورة الشعرية أو الصورة الشمسية أعجز من أن تستوعب كل ما أوتيت ربة الحسن من الجمال والفتنة ، وان خير حكم على المرأة الجميلة لا يكون إلا بعد أن تراها بنفسك وتكلمها . فاذا فاتك أحد هذين الأمرين ، فاتك الحكم على نصف الجمال. فان كليوباترة وأشباهها لم يكن جمالها مقتصرا على شكلها فحسب ، بل كانت بلا شك تجمع — إلى جمال الصورة — رشاقة اللفظ وسحر الطرف الى آخر تلك الصفات التي يعجز المصور عن اثباته فى التصوير

***

وكم من فتاة كانت خاملة الذكر وضيعة الأصل مثل « نل كوين » او « لولا مونتز » رفعها جمالها الى رتبة تنقطع دونها الاعناق ، وأبلغها منزلا عاليا لم تكن لتحلم به منذ نشأتها وحداثتها . ولقد صدق « ستيفنسن » كل الصدق حين قال :

« إن سر نجاح المرأة وتفوقها على أشباهها من الجميلات ، ينحصر فى طلاقة أساريرها وصباحة وجهها ، وان ربة الحسن لتصل بهاتين الصفتين الى غزو النفوس وأسر القلوب ! »

« نل كوين »

ولنذكر « نل كوين » على سبيل المثال والتدليل على فتاة تولد من أصل وضيع وتنشأ فى بيئة حقيرة من أبوين فقيرين ، ثم لا تلبث — بما أوتيت من طلاقة ورشاقة وعذوبة ابتسام — أن تملك زعامة الجمال فى عصرها . ولقد كان شعار هذه الفاتنة :

« اضحك يضحك لك العالم ، وابك فلن يبكى أحد سواك ! »

وبهذا بلغت ما تطمح اليه من رفعة ومجد ! مع أن أباها كان بائع فاكهة وأمها فقيرة تعسة ، وكانا لا يظفران ببلغة من العيش الا بكد الأنفس . وقد نشأت ابنتهما « نل » — على ما عوداها — تبيع الناس البرتقال ، وبسم لها الحظ فلم تلبث أن أصبحت محظية ملك وأم دوق . أما المراحل التى اجتازتها فتتلخص فى انها تدرجت من بيع البرتقال الى التمثيل ، ثم هام بها الشاعر المشهور « دريدن » فأنشأ قصيدة غزلية رائعة نوه فيها بحسنها ، فلم تكد تلك المقطوعة تتلى على مسامع الملك « شارل

الثانى ، حتى هام بها على السماع والأذن تعشق قبل العين أحيانا ! فدعاها الى العشاء معه ، وتتابعت الايام ونما غرام الملك . كما نما من قبل غرام الجماهير بها ، ثم لم تلبث ان أصبحت معبودة الملك نفسه ، بعد أن أصبحت معبودة الجمهور من قبل ! ثم ولدت منه ولدا هو « دوق سانت البانز » وظل يحبها « شارل » الى آخر أيام حياته . فلما حانت ساعة الاحتضار أوصى بها أخاه أخيرا . وكانت آخر كلماته قوله له — : « لا تدع نلى تموت جوعا ! »

على انها تبتلت بعد موته وانصرفت الى العبادة والزهد . وحسب هذه الغادة انها فتنت ملكا كشارل الثانى ، وشاعرا مثل « دريدن » ، ولا شك أن فوزها لم يكن سببه قسامة وجهها فقط !

« فاتنة ارلندا »

وقد ظهرت فى ارلندا فاتنة أخرى ، نشأت من أصل وضيع وأسرة مجهولة النسب . وكانت تلك الفاتنة لا تملك من حطام الدنيا غير ابتسامتها الخلابة . كان اسمها « بج » وكانت تبيع الفاكهة فى بعض المسارح ، ثم فتن جمالها بعض الشعراء ، وبدأ يقدر الناس حسنها ، حتى وقع فى حبال غرامها الشاعر المشهور « جرك » فطلب اليها الزواج ، فرفضت طلبه لانها كانت تميل الى الحرية ولا ترتاح نفسها الى قيود الزوجية ، وما زال جمالها يشتهر حتى أحرزت زعامة الجمال فى عصرها كله !

« لولا مونتز »

وكانت « لولا مونتز » التى خلبت العقول وأسرت القلوب منذ قرن مضى ، ابنة جندى بسيط ، مات فى الهند ضحية الطاعون ، وهى فتاة صغيرة تعلق بحبها سيد عجوز عظيم القدر اسمه « السيد ابراهام » فلم يرق فى عينها وهربت الى ارلندا مع ضابط صغير حيث تزوج منها .

ولما بلغت الثامنة عشرة سافرت مع هذا الضابط الشاب الى الهند ثم طلقها وهى فى الثالثة والعشرين من عمرها لهيامها بضابط آخر ، وكرت الأيام فتركت معشوقها الجديد الى اسبانيا ولقبت نفسها بلقب « لولا مونتز » واحترفت مهنة الرقص ، ثم

غادرت اسبانيا الى باريس حيث فتنت أهلها ولم تغادرها الا بعد ان اشتبك عاشقان من أجلها في معركة دموية انتهت بقتل احدهما . فطارت الى « مونيخ » حيث استطاعت أن تبهر ملك « بافاريا » الشيخ

***

والآن قل لي بربك أيها القارىء : أي شيء في هذه الفتاة حبب فيها هذا الملك الى درجة الهيام ، لاشك انه ليس جمالها وحده ، فالجميلات كثيرات جدا ، وانما السر في ذلك ينحصر في رشاقتها وانطلاق اساريرها ، ولقد قالوا : ان ذلك الملك الشيخ لم يكن يهش لشيء من مباهج الحياة كما يهش لابتسامتها العذبة وضحكتها الرنانة الفاتنة وقد وصلت بذلك الى أن أصبحت « كونتيسة » ثم « بارونة » وسكنت قصرا فخما ووهبها الملك املاكا لايقل دخلها السنوي عن عشرين الف فلورنس ، وأصبحت هي حاكم « بافاريا » الحقيقي ، حتى خلع الملك ونفيت صاحبته الحسناء . فأسرعت الى انجلترا مستقلة فيها ، ثم ختمت حياتها بالزهد والتبتل كما فعل سابقتاها اللتان أسلفنا ذكرهما في هذا المقال

وموجز القول أن الغرارة التي تبدو على الحسناء والوضاءة التي تتجلى في شمائلها وما تدخله على النفوس من البهجة والانشراح هي ملاك الفوز وسر نجاحها . وان الجمال الجثماني ليس هو كل شيء في المرأة !

«السندباد»

اطلب كل مايلزمك

من مكتبة

بالازهر الشريف

بالقاهرة